مفاهيم
إسلامية

الغزو الفكري

محمد جلال كشك

الطبعة الثانية
الناشر الدار القومية للطباعة والنشر
القاهرة

قد كنت آثرت عيشها بهذا الحديث ..

لولا فاجعة أبكت العين .. وأدمت القلب

فعذرا يا صاحبتي .. ان أهديت حديثي لمن بكيناه معا ..

الشهيد الاسلام والعروبة : عبد السلام محمد عارف

ان موقفنا ازاء الاسلام يختلف ، لأننا ثوريون مرتبطون بالشعب•ذلك أن رفض الايديولوجية الاسلامية فى بلاد مستعمرة ، يضـــطهد دين الأكثرية الساحقة لسكانها ، هـــو مجرد تظاهر بتحضر مزيف تنادى به فئة منفصلة عن الشعب غريبة الحياة والفكر ، امتصتها أو شـــلتها أيداوجية العدو المستعمر •

عمار أوزيجان
الثائر الجزائرى

خطبة الطبعة الثانية

الحمد لله ..

قال فى تنزيله الحكيم : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

والحمد لله صدق وعده .

شكرناه فزادنا .

ما أردنا الا مرضاته ، والذود بلسانتا عن دينه ، والأمة التى شرفها ، جل وعز ، بأن سماها خير أمة أخرجت للناس ، فشاءت ارادته سبحانه وتعالى ، أن يعجل لنا المثوبة فى الدنيا بشرى بثوابه فى الآخرة ... ان شاء الله .

وأى مثوبة أجل وأكبر من أن تنفد الطبعة الأولى ونشرع فى طبع الثانية ، للون من الفكر لا يكتب عنه محترفو النقد حرفا واحدا .. بل وترفض بعض الصحف أن تعلن عنه ولو بالأجر . وهى تعلن لمؤسسات تعمل لحساب الاستعمار ، ولدول تكفر بالله ورسوله وملائكته واليوم الآخر !.

الحمد لله ..

اخترنا طريقا أوله الايمان به ، والعـــزة للمؤمنين ؛ وآخره جنات عدن .. وما وعد الرحمن ..

اللهم رضينا بدايته .. فأحسن ختامه ..

وقد كنت قد وعدت فى كتابى « الماركسية والغزو الفكرى » أن أضمن الطبعة الثانية من « الغزو الفكرى » ما قاله البعض حول الطبعة الأولى ورأيى فيما قالوه ..

ولكنى وجدت نفسى متعجلا اصدار هذه الطبعة ، بغير تعديل كبير ، الا ما جرى به القلم هنا أو هنـــاك .. لنفس السبب الذى دفعنى الى التعجل فى اصدار الطبعة الأولى .. « وكان الانســـان عجولا » .

دفعنى الى ذلك الموجة الاستعمارية التى تتخذ شـــكل هجوم وحشى للصليبية الغربية ضدنا فى أفريقيا ..

لقد تخطوا مرحلة التآمر والتبشير الى الهجوم وحرب الابادة ضـد المسلمين والعرب .. وما هى الا سحابة صيف ، وان حسبها « الدجال » معجزة .. فالذين لم يقهروا الاسلام ولهم فى أفريقيا جيوش وقواعد وانتداب ووصاية .. أتراهم قادرين اليـــوم وقد جلت جيوشهم ، واستبدلوا بنواب الملكة أجراءها وعملاءها ؟ ..

أتراهم قادرين وقد قامت قاهرة ناصر •• تحمى العـــروبة وتذود عن الاسلام ؟!••

اللهم لا ••

غير أن هذا الهجوم الغادر يفرض علينا أن نبادر فندفعه بكل ما نطيق ، فليس فى ديننـــا : « اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنـا قاعدون » ! ••

والذى يجرى فى أفريقيا سيطرق أبوابنا لو تركناه يجرى ، ونعمنا بأمن مزعوم خلف الباب الموصد ••

وما كان الاسلام بدعوة حرب •• بل رسالة سلام •• غير أننا لا نستطيع أن نقف مكتوفى الأيدى••وهم يذبحون كل من يحمل لقب حاج •• ويسقطون كل من يمت للعـروبة بسبب ، أو يرنو لقاهرة ناصر ملتمسا سبيلا أو هدى ••

لذلك تعجلت صدور طبعتنا هذه •• ولعلى أردت أن أقول :

« من المؤمنين رجال صـدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا » ••

القاهرة

ذو الحجة ١٣٨٥

مارس ١٩٦٦

أما بعد ..

فقد كنت كتبت كلامى هذا .. ودفعت به الى المطبعة ، كعادتى فى كتابة المقدمة ، بعد أن تفرغ المطبعة من جمع الكتاب .

وكنت قد انتويت أن أقتصر على شكر المولى عز وجل .. فاذا باعلانات تصدر عن كتاب « لويس عوض » على هامش الغفران .. فقلت على عادة أسلافى ، فرسان العروبة الأماجد : « هذا رزق ساقه الله الينا » .

وسارعت بشراء الكتاب .. حتى يصبح التوزيع خمسة عشر ألفا ونسخة .. هى تلك التى اشتريتها أنا !

ورأيت بالكتاب دعوة للنزال .. فقلت : « لا يأبى الكرامة الا لئيم !

ولست أنوى فى هذه الصفحات أن أناقش ما جاء فيه حول أبى العلاء المعرى .. وانى لفاعل ، ولكن ليس فى هذا الموضع ، ولا فى هذه المرة ..

حسبى أن أناقش ما استعرض فى المقدمة ، وكأنى به قد تمثل قول أبى الطيب :

واذا ما خلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

ناسيا .. أننا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : « سواسية كأسنان المشط .. يسعى بذمتهم أدناهم » .

وانه من تقاليدنا فى الرد على رسائل قيصر ، أن يستدعى أمير المؤمنين أصغر من بالباب من الكتاب فيفحم به قيصر .. اذ باسم أمة خالدة يتكلم ، وعن قلب وعى الحكمة ينطبق..والمرء بأصغريه: قلبه ولسانه .. وشهد الله أن قلبى مسلم ، ولسانى عربى .. وبهما أقهر العالم كله .

تحدث « لويس عوض » عن نفسه فى مقدمة كتابه هذا ، فتحدث عن الذين هاجموه .. وذكرنى من بينهم .. زاعما أننى ألفت كتابا عنه .. هو كتابنا هذا .

والحق غير ما قال .. والحق ما تنبأ وما تمنى لنفسه .. اذ أن كتابنا هذا قد أفرد له فصلا ضمن من تناولهم من طلائع الغزو الفكرى .. أما هو فسنخصص له كتابا مستقلا هو كتابنا القادم باذن الله .. حيث نناقش فيه تلك الفرية التى زعمها فى محاضرات بمعهد الدراسات العربية ، عندما زعم أن لغة العرب لا تتضمن لفظة الحرية ، وأن تاريخ العرب وحكمهم لم يعرف الرجل الحر.. الا بمعنى غير الرقيق .. واننا تعلمنا الحرية من أوروبا .. وكل صبى على أرض العروبة يجب أن يعلم أننا قد فقدنا الحرية على يد أوروبا .. وانتزعناها انتزاعا من أوروبا هذه .

هذا هو موضوع كتابى القادم ان أراد الله لى أن أتمه .

وقال « لويس عوض » عن الذين هاجموه .. « انهم تناولوا بالنقد موقفى (أى موقف لويس عوض والعياذ بالله !) القديم

من مشكلة الازدواج اللغوى ، وموقفى القديم الجديد ، من عمود الشعر العربى التقليدى ، ثم موقفى من تاريخنا الثقافى والفكرى ابان الحملة الفرنسية على مصر ، وموقفى من تاريخنا القومى والروحى ابان ثوراتنا الكبرى على روما وبيزنطة ، ثم بعض اجتهاداتى عن ابن خلدون ، وأخيرا ، وليس آخرا (يقول الدكتور لويس عوض ، المستشار الثقافى للأهرام بنص حروفه كما هو منشور فى كتاب الهلال العدد ١٨١) يقول : وأخيرا وليس آخرا، موقفى من السياسة ، وهو ما عجزت وعجز الناس عن فهمه ، لأنى لا أكتب فى السياسة ، ولا سبيل الى معرفة آرائى فيها الا لمن أوتى العلم اللدنى والقدرة على التفتيش فى ضمائر الناس وأفئدتهم » [1] .

لا بد من وقفة ..

كبير النقاد .. من يكتب الخطابات المفتوحة .. والأخرى التى لا نعلمها .. لرجال الفكر ، وكبار المسئولين عن الثقافة .. يوجههم وينصحهم ، ويشير عليهم ويرشدهم الى من وما هو رجعى ، ومن وما هو تقدمى .. الذى يقسم الناس مذاهب ومدارس ، وينصب أمراء فى شتى وجوه ثقافتنا .. يعلن على رؤوس الأشهاد ، أنه لا يكتب فى السياسة .. ويفتخر بأن معرفة رأيه السياسى تحتاج الى ضارب رمل ، أو الى صاحب وحى لديه من العلم اللدنى ، وما أوتى الخضر عليه السلام ، حتى يمكنه الكشف عن «المستخبى» فى قلب « لويس عوض » .

(١) ص ٨ .

وهذا السر ..

هو رأيه السياسى !

يا عجبا .. ! أى سر تخفى يا رهين المحبسين ؟!

المستشـــار الثقافى لأكبر صحيفة فى دولة اشتراكية ، أول ما يلتزم الناس فيها ، يلتزمون سياسيا .. هذا المستشار يعلن انه قد اعتزل السياسة .

لمـاذا ؟

ما الذى يريبك ؟

وما الذى يصدك عن السياسة ؟!

وكيف تدير الثقافة فى بلد ملتزم .. وأنت تخفى حقيقة رأيك السياسى ؟

وهل ثمة من يصدق أنك تستطيع حقا أن تقول رأيك فى الازدواج اللغوى ، وعمـود الشـعر ، وأن يكون لك موقف من تاريخنا القـومى والروحى .. الخ دون أن تكتب فى السـياسة ، ودون أن يعرف رأيك السياسى الا من لديه علم لدنى ؟

أحقا يمكن فصـــل الفكر والثقافة والتـــاريخ والأدب عن السـياسة ؟! أيمكن أن يتصـدى لقضـية فكرية من لا يكتب فى السياسة ، ومن لا سبيل الى معرفة رأيه السياسى ؟!

اللهم فاشهد أننا نعرف •• وأن ليس فى الأمر خبىء •• ولا خديعة ، بل لعله يتمثل قول معاوية : « من تخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته » •

اللهم فاشهد أننا لم نخدع ولم نتخادع •• ولو قلنا ما نعرف، لصاحوا بنا : هذا استعداء للشرطة !

أيصح أن يتباهى مثله بأنه قد اعتزل السياسة ، وأنه يطوى عن الناس آراءه فيها ، ويحتفظ بها فى حرز حريز ، مطمئنا الى أن الوحى قد رفع ، واستأثر الله بعلم الغيب •

أمثل هذا يستشار ؟!

ما علينا ••

نعود لما بيننا وبينه •• نعود لحديث الابل ، فللبيت رب يحميه•

يقول ان الاتهامات التى وجهت اليه ، لو صدق أقلها ، لاستوجبت « نبذى ــ (نبذ لويس عوض) من صفوف الأمة العربية من الخليج الى المحيط » •

رضينا •• وعلى حد قول أمير المؤمنين : «نفعل ان شاء الله !»

فماذا قلنا •• وبماذا نتهمه ؟ !

دعنا من حيرة البرية فيه ، بين اتهامه باليسارية•• واليمينية•• فما هى الا أسماء سمبتموها •• وفى كتابى : « الماركسية والغزو

كرى » أوضحت هذه القضية بما لا يحتاج لمزيد من الشرح ••
أقول باختصار شديد ـ اننا نواجه عدوا واحدا وحربا أبدية ،
ما اختلفت الأسماء ، وتعددت الفرق والمذاهب •• واني أنظر
رضا عن النفس ، لصدق تحليلي ، عندما أرى غيرة لويس عوض
الشيوعية !

اني أتهم « لويس عوض » انه يضع بداية خاطئة ومشوهة
فاحنا القومي ، عندما يجعل المعلم يعقوب ، بداية للقومية المصرية،
لمعلم يعقوب ، عميل اشتغل لحساب المماليك ، ثم لحساب المحتل
رنسي ، وكون فيلقا لضرب الشعب وتحطيم ثورته ، ونهب أمواله
سلمها للمحتل الفرنسي •

الدكتور يرى أن الحملة الفرنسية هي بداية تاريخنا القومي
حررنا ، ومن ثم فالتعاون معها كان يخدم التطور ، ويقف الى
انب مصر !

ونحن نرى أن الحملة الفرنسية كانت بداية الغزو الاستعماري
غربي للوطن العربي •• وان أبطال تاريخنا هم الذين قاوموا
لحملة الفرنسية ، وثاروا ضد نابليون ، وقتلوا كليبر ، وألقوا الى
لأرض في ازدراء شارة فرنسا ، المثلثة الألوان •• لأنها ان كانت
عني في أوروبا رمزا للحرية ، فهي تعني في الشرق صك العمالة
التبعية للاستعمار •

وأي اجتهاد حققه لويس عوض في قضية المعلم يعقوب ؟!••

ان هذه الفكرة قد عالجها صبحى وحيده منذ أكثر من عشرين عاما، واقتبستها أنا منه فى كتابى الأول منذ عشر سنوات لأعود بعد ذلك فأصحح موقفى وأصحح معلوماتى باجتهاد يسير ..

ولكن لويس عوض ينقل فكرة صبحى وحيده .. فأين الاجتهاد ؟! الاجتهاد هو فى تزييف طابع الحملة الفرنسية ، فى ادعاء أن بيانات نابليون هى وثائق تحرير الشعب المصرى .. فى خلع الألفاظ الضخمة على هذه المنشورات الدعائية التافهة التى حاول نابليون عبثا أن يغرر بها بالمصريين !

هذه البيانات التى يسميها لويس عوض دستورا وميثاقا ويصفها « الن مورهيد » بكل بساطة ووضوح بقوله : « وكان هذا البيان — على كل حال — من اعمال الرياء والخديعة مع المبالغة والاسفاف الحارق فى النفاق » ويصف بصدق كيف قابل المصريون هذه السخافات بقوله « واما حديث الفرنسيين الثورى عن الحرية والاخاء والمساواة ، فلم يكن فى نظر المصريين الا شقشقة لسان . وتلك حقيقة كان على « بونابرت » أن يتعلمها عمليا على يد المصريين » .

هذا ما يعلمه الغرب لأبنائه فيما يكتبه لهم .. يعلمهم الحقيقة .. لأن الحضارات لا تبنى الا على العلم .. أما صبيته الذين يرسلهم لنا .. فيعلمون ان نابليون كان يريد اقامة حكم قومى ونيابى ودستورى .. الخ !

والدكتور « لويس عوض » اجتهد فى موضوع الحرية ، فاكتشف ان العرب لم يعرفوها لفظا ولا معنى ! .. واننا تعلمنا الحرية من أوروبا ... وقبل القرن التاسع عشر لم تقم ثورة واحدة ترفع شعار الحرية .

ونحن نرى ان الحضارة الاسلامية ، والعربية منها بالذات ، قد مارست الحرية كاحدى الوظائف الطبيعية ، وأن الثورات اذا كانت قد رفعت شعار مقاومة الظلم ، فذلك انطلاقا من أن الأساس هو : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » .

فالأصل هو الحرية ، والوضع الشاذ هو ظلم الحاكم بخروجه عن هذا المبدأ .

وحضارتنا لا تفرق بين ما هو حق وما هو عدل .. فما هو حق هو عدل ..

وفى موضوع أبى العلاء المعرى بالذات ، لنا أكثر من اتهام، حسبنا أن نستعرضها تاركين النقاش والتفصيل لحديث آخر ..

هو يزعم أننا المحافظين .. يفزعنا فتح باب الاجتهاد فى دراسة التراث .

لماذا ؟ !

هل هو أول من اجتهد أو فسر ..؟!

مرحبا بفتح باب الاجتهاد •• بل وخلعه خلعا •• شرط أن يتقبل المجتهد فى نسبة كل تراثنا وكل عبقريات أمتنا الى جـــذور لاتينية ويونانية •• شرط أن يتقبل اجتهادنا فى تفنيد رأيه •• هذا هو كل ما نطالب به ، ولا معنى للبس مسوح الشهداء ، والظهـور بمظهر الذى يتعرض للارهاب ؟!

أى ارهاب ؟! •• وهو يؤلف عن المعرى ، فينسب عبقـريته للاحتلال الصليبى ، ولأمور لقنهـا له راهب بدير الفـاروس ، بل ويتهم المعرى بأنه كان مواليا للاحتلال الصليبى •• ويتهم بنى حمدان بالعمالة للاحتلال الرومى •• وكلنا نعرف أن أبا فراس فارس بنى حمدان ، قد صنع من الغبار الذى تجمع فوق جسده الشريف •• خلال غزواته ضد الروم ، لبنة (أى دبشة يا دكتور) أوصى بأن يوسد رأسه فوقها فى قبره ، لتكون حجته أمام الملكين بجهاده فى سبيل الله ضد الروم •

ثم يأتى « لويس عوض » فينسب آل حمدان للعمالة والخيانة وموالاة الروم ، ويطبع هذا وينشره ويوزع منه كما أخبره صديقه خمسة عشر ألف نسخة •• ثم هو مستشار ثقافى يدعى انه يغلق ويفتح •• فأى اضطهاد وأى ارهاب••أن يرد عليه بالحجة والمنطق فى مجالات يشهد هو انها لا توزع ولا تقرأ •

طب علينا ان كنت صادقا •• وأكتمها ان لم تكن •

افتحوا باب الاجتهاد .. ولكن اذا اقتلعتكم الرياح فلا تجأروا بالشكوى .

ان الذى يخشى فتح باب الاجتهاد ؟ .. وأى متعقدات ستتزعزع ؟ أترديد قمامة الفكر الغربى ، يزعزع معتقداتنا ، ويخيب آمالنا فى التراث ؟

لا .. انت والله أهون من ذلك ..

ان هذا الفتح الذى حاولته ، قد أثمر ـ والحمد لله ـ رد فعل كله خير وبركة ، وها هى المقالات تكتب فى الاشادة بتراثنا .. والاكتشافات تترى ، لعبقرية مفكرينا .

وكتابنا التقدميون الأفاضل ينقلون لنا كل يوم أنباء اهتمام الاتحاد السوفيتى بالتراث العربى والاسلامى ، واجتهاد الروس فى كشف روائعه ، وعرفنا منهم ان ابن خلدون قد طبع بالروسية أكثر من طبعة .. وان تاريخ الطبرى ، تجرى عليه الدراسات ، على أعلى مستوى ، وتكتشف وثائق جديدة فى المقاطعات الاسلامية فى الاتحاد السوفيتى تثبت صدق دراساته ودقة معلوماته .

وثبت ان ماركس قد استعار نظرية فائض القيمة من ابن خلدون .. ولو قلناها نحن ، لضحكوا فى كمهم ، ونظروا الينا فى أسى لأننا نبحث فى الكتب الصفراء .

وفى هذه الايام يدور لغط وصياح كصياح الدجاج فى

استعراضاتها أمام الديكة ، حول كتاب لمؤلف يهودى ، اكتشف فيه ان الاسلام يتنافى مع الرأسمالية •• وعندما طرحت هذه الفكرة فى مقال لى بمجلة الرسالة منذ أكثر من عام ، وقلت فيها انه يبدو أن دورة التاريخ كانت تحتم تخلفنا فى مرحلة النظام الرأسمالى ، لأن الخلق الاسلامى يتنافى مع خصائص الحضارة الرأسمالية ، ليس فينا الايمان بالطبقية ، ليس عندنا هذا التقديس لحق الملكية ، ليس فى حضارتنا تقسيم العالم الى دول صناعية ودول منتجة للخامات، لاتعرف حضارتنا بناء ثراء دولة على حساب دولة أخرى•

لما قلت ذلك منذ أكثر من عام •• اذا بهم كالذى يتخبطه الشيطان من المس !

مرحبا بفتح باب الاجتهاد ، ان كان قد أغلق يوما ، لقد أغلق باب الاجتهاد لاختفاء المجتهدين واقتحامات المتسورين للأبواب اليوم ليست اجتهادا ، بل عبث يجب أن يضرب على يد فاعليه •• لا باستعداء الشرطة كما يحلو لهم أن يتظاهروا •• فشرطتنا والحمد لله لا تتدخل فى الفكر •• ولكن بفضح جهلهم ، وتبين عدوانهم على مقومات الأمة •

ان من يغلق باب الاجتهاد •• فقد خاصم رسول الله •• القائل : « للمجتهد ان أخطأ أجر وان أصاب أجران » •• هل بعد ذلك تحريض على التفكير ؟!

(ن)

لننظر اذن ما الذى اجتهده هذا ..

اجتهد لويس عوض فى شأن أبى العلاء وخرج باجتهاد ملخصه ان أبا العلاء المعرى هو ثمرة الحروب الصليبية ، ثمرة الصراع الفكرى ، العقائدى ، الذى ساد المنطقة بفعل الاحتلال الصليبى ، وتبادل مدن حلب وانطاكية واللاذقية بين المحتلين الصليبيين والمسلمين .

يقول المجتهد : « فاذا ذكرنا أن المعرى انما ولد مع مولد الحروب الصليبية وعاش حياته كلها فى غمارها ، واذا ذكرنا أن اهتمامات الرجل الأولى كانت اهتمامات فلسفية تتصل بالعقائد وبحرب العقائد التى دارت رحاها ، ليس فقط فى عصره ، وليس فقط فى بلاده ، ولكن فى صميم بلدته ، وعلى بعد أميال معدودة منه — تكشفت لنا ضرورة وضوح الصورة التاريخية التى برز فيها هذا الرجل العظيم وبرز فيها عمله العظيم» (١)

والمعرى كما يرى المجتهد هو ثمرة الفكر اليونانى الذى درسه على يد هؤلاء الصليبيين الذين كانوا يحتلون حلب (فحلب اذن قد سقطت فى يد الروم احدى عشرة سنة قبل مولد أبى العلاء المعرى فى ٩٧٣ م ، ٣٦٣ هـ .) وكان يتردد عليها ويدرس هناك فى ظل احتلالهم ، وفلسفته هى ثمرة تعاليم أو أسرار لقنها له راهب

---

(١) ص ٦٥ من كتاب الهلال ، الذى يوزع (١٥) ألف نسخة اذا ألف فيه لويس عوض ، بشهادة صديقه السيد مصطفى بهجت بدوى .

في دير الفاروس ، علمه هذه الأسرار في صباه فعاشت معه الى أن أخرجت روائعه •• ويجتهد لويس فيؤرخ ان هـــذا الذى لقنه الراهب لفخر العقل العربى هو كتب الفلسفة اليونانية وآدابهـا فى لغتها الأصلية •

يقول : « وحين نقرأ عن المعرى انه درس بدير فى اللاذقيـة على راهب من الرهبان علوم القدماء ، أليس من حقنا ان نستخلص ان علوم القدماء هذه التى كان يحفظها ويعلمها رهبان الروم فى أديرتهم لم تكن سوى الأدب اليونانى والفلسفة اليونانية بصـفة خاصة » •

وأى صبى من صبيان فيكتوريا •• كوليج يعرف أن الأديرة فى تلك الحقبة كانت تعتبر الفلسفة اليونانيـة والآداب اليونانية ، فكرا وثنيا تحرم قراءته فضلا عن تدريسه •

أصحيح أن ديرا مسيحيا فى القرن العاشر الميـلادى ، كان يدرس باللغات الأصلية قصص هوميروس وارسطوفانيس وما فيها من تصارع وتسافد الألهة ! •• أهذا يتفق مع التزمت المسيحى فى هذا الوقت ، والتشدد فى عداء الوثنية •• لقد كانوا يلقبون المسلمين بالوثنيين••ونشأت من الاتصال بالمسلمين حركة تحطيم الأيقونات؟!

أم يجب أن نفترض وجود دير شاذ به راهب متشكك أو حتى ملحد ، وهذا الراهب قـد أوتى من الحظ ما جعله يحتفظ

بكتب آداب وفلسفة اليونان بلغتها الأصلية ، وأنه أوتى من الفراسة ما جعله يتوسم فى طفل أعمى من أبناء المسلمين عبقرية خاصة ، فتلا عليه آداب وفلسفة اليونان (فى كم من الزمن لا نعلم) .. وحفظها الطفل ، وعاشت معه الى أن أخرجت روائعه ؟

أهذا اجتهاد ؟! .. أمن أجل هذا نفتح باب الاجتهاد ؟!

ثم يمضى لويس عوض فى اجتهاده فيرى أن أزمة المثقفين فى عصر أبى العلاء المعرى (ولا بد فى كل عصر من أزمة للمثقفين) هى الاختيار بين الحرية الفكرية فى ظل الحماية الصليبية ، بما يفرضه الاحتلال الصليبى من تفكك سياسى ، وقيام نظام مدن على الطراز الاغريقى ، تحت الحماية الأجنبية الصليبية ، فى مدن الشام .. وبين الوحدة والتحرر تقدمها مصر (الفاطمية) ومعها القضاء على حرية الفكر .

يقول : « هذا اذن هو المأزق الذى دخل فيه العالم الاسلامى فى المشرق فى زمن المعرى وما قبله بقليل ، وما بعده بقليل ، أيام الحروب الصليبية البيزنطية فى القرنين العاشر والحادى عشر . كان عليه أن يختار بين حضارة مدن مثقفة تحترم العلم والفكر والعقل وتضطرب بالرياضة الروحانية أو العقلانية مثل حلب وانطاكية والبصرة وبغداد ، ولكنها ضعيفة ومفككة لا تملك القوة الكافية للدفاع عن نفسها أمام الغزاة ، ومن باب أولى لا تملك القوة الكافية

للدفاع عن العالم الاسلامى كله ، وبين حضارة الفاطميين التى كانت تملك القوة الكافية لرد خطر بيزنطة والصليبيين ، ولكنها رغم قوتها كانت معادية للثقافة والفكر والتراث العقلى الانسانى والتواصل الحضارى بين الشعوب بغض النظر عن علاقاتها السياسية » .

ويصل لويس عوض عبر فتح باب الاجتهاد ، الى أن أبا العلاء المعرى وجيله من المثقفين قد اختاروا حرية الفكر فى مدون الشام تحت الحماية الاجنبية، بل ووالوا الأجنبى المحتل ، وكرهوا الوحدة مع مصر ، وما تقدمه من تحرر واستقلال ثمنه حرية الفكر التى تقضى عليها مصر .. ويوشك أن يقول انهم فتحوا مجلة اسمها حوار ! .

يقول : « وفى اعتقادى ان المعرى والمثقفين العرب فى زمانه من أمثال أبى الفرج الزهرجى وعامة من تعلقوا ببلاط الحمدانية ومن شاكلهم من مهادنى بيزنطة خرجوا من هذا المأزق باختيار الثقافة على حساب القوة والاستقلال السياسى .. فقدموا الجزئى على الكلى وقدموا العقل على الحياة » (٨٢) .

القضية كما ترى خطيرة ، وباب الاجتهاد قد فتح على مصراعيه ـ أستغفر الله ـ بل اقتلع من أساسه واحتطب .

وما كانت هذه المقدمة لتتسع لنرد على ذلك كله .. حسبنا أن نقول بعض حقائق ..

المعرى مات قبل الحرب الصليبية بأربعين سنة !!

أى والله .. رغم رقم توزيع كتبه المرتفع كما يقول له أصدقاؤه !

وصحيح أن باب الاجتهاد قد فتح .. وسامها كل مفلس .. ولكن شباك الاجتهاد نفسه لا يستطيع أن يغير هذه الحقيقة ، وهى ان الحروب الصليبية قد بدأت فى سنة ١٠٩٧ والمعرى مات فى سنة ١٠٥٧ !

أما الاجتهاد أو الاحتيال على هذه الصخرة التاريخية ، بالزعم ان الحرب مع الروم كانت تمهيدا للحروب الصليبية ، فليس فى الحرب ضد الروم ظاهرة خاصة تستحق أن يكون لها نتائج خاصة .. لأن الحرب بين المسلمين والروم نشبت منذ غزوة تبوك ، أى قبل مولد المعرى بأربعة قرون ! .. وهى لم تنقطع أبدا ، حتى كان هارون الرشيد يوصف بأنه يغزو الروم عاما ويحج عاما آخر .

والروم هجموا على المسلمين فى عهد المعتصم ، وصاحت امرأة مسلمة .. وامعتصماه ! .. فوضع أمير المؤمنين كأسا كانت بيده .. ولم يكمل شربها حتى غزا عمورية ، وقال أبو تمام خالدته :

السيف أصدق أنباء من الكتب ..

وفى القصيدة من الشتائم العقائدية ما فيها ..

فلماذا لم يظهر أبو العلاء طوال قرون الحرب والسلم بين المسلمين والروم وظهر فى هذه الفترة بالذات ؟

وأى تصور ساذج لمعنى حرب العقائد .. هل كتابة قصيدة شعر والرد عليها يسمى حرب العقائد ؟! هل قول أبى العلاء :

أعباد المسيح يخاف صحبى وهم عباد من خلق المسيحا

يصح تسميته بحوار عقائدى ؟! ..

لا .. هذا تعليق أو قفشة جميلة .

ولكن حرب العقائد شىء مختلف تماما ، ومأساة الدكتور أنه يستخدم كلمات كبيرة فى وصف ما لا وجود له الا فى رأسه .. كأن يصف تغرير نابليون الفاشل بالمصريين بأنه « الميثاق » أو أن يسمى أفعاله لسماة بلوتولاند .. شعرا ..

حتى الحرب الصليبية الحقيقية ، لا تلك المزيفة التى أشعلها لويس عوض ليثبت صحة نظريته ولو احترق العالم ! .. حتى الحرب الصليبية[1] الحقيقية لم تكن حرب عقائد كما يجب أن نستخدم هذا التعبير .. فهى حرب يشنها عقائديون ـ ان صح التعبير ـ ولكن سلاحها السيف والمنجنيق والنفط !..فلا الصليبيون تمكنوا من تنصير مسلم واحد ، ولا الصليبيون الذين عاشوا بيننا قرابة قرنين ، قد عادوا مسلمين الى أوروبا .

حقا لقد تمت عملية تأثير غاية فى الخطورة ، ولكنها بعكس

(١) الغزو الصليبى من شأنه أن يخلق عصبية دينية ، وجمودا فكريا ، لا تفتحا . والتفتح العقلى والتشكك والجدل الفلسفى ، كان ثمرة الاطمئنان والاستقرار ، لا الحرب الشعواء .

ما يروج الدكتور ، والحق ان بذور النهضة الحديثة فى أوروبا قد عادت مع هؤلاء الصليبيين •• انهم لم يتعلموا من المسلمين •• فقط •• عادة الاستحمام ، بل تعلموا من المسلمين الكثير •• ولعله ليس جديدا أن نقول ان البروتستنتية ـ أضخم اصلاح دينى فى أوروبا ـ كان احدى ثمرات الحروب الصليبية •

والقول بأننا قدمنا لأوروبا ، وأثرنا فى الصليبيين ، ليس انتقاء بخمرة الأسلاف •• بل يرجع لسبب طبيعى جدا ، هو اننا كنا فعلا الأكثر حضارة فى هذا الوقت •

فحتى لو كانت العلوم اليونانية هى خاتم الملك ، الذى يحمله يحتكر الثقافة ، فقد كان هذا الخاتم معنا فى هذه الفترة ، كنا نحن المرجع الوحيد المعتمد للفكر اليونانى •• ودع « عوض » من الاضافات الرائعة والتطوير العبقرى الذى حققه علماء وفلاسفة المسلمين ••

ولكن الدكتور يبدأ بفرضيات ، ويطوع كل الحقائق لاثبات نظريته أو فرضيته مهما كان فى ذلك من تجن على الحقيقة •

وأوضح مثال على ذلك حكاية تعديل تاريخ الحروب الصليبية والسقطة الشهيرة التى حرص على اخفائها فى كتابه هذا لكى لا يتأثر التوزيع •• وما كنا نتوقع أن تواتيه الشجاعة لكى يذكرها أو يشير اليها أو يفسرها تفسيرا مقنعا غير التفسير الساذج الذى ينسبها لخطأ مطبعى •• وهى أبعد ما تكون عنه •

وهى سقطة جديرة بأن تذكر ويعاد التذكير بها •• ولو كان

فى المجال متسع لحللنا هذه السقطة وما كشفت عنه من زيف فى واقعنا الثقافى .. ومن تلاميذ لا يقرأون ، بل من متجاورين فى نفس الصفحة لا يقرأ بعضهم لبعض ولا يصححون ما يخطىء فيه بعضهم حتى أتى التصويب من خارج دائرة المجتهدين والمؤمنين بهم والعاملين معهم !

وحكاية السقطة الشهيرة ..

ان الدكتور انطلاقا وتعزيزا لنظريته بأن أبا العلاء المعرى هو ثمرة الصراع العقائدى ، وثمرة احتلال الصليبيين لمدينة حلب ، وتبادلها بين المسلمين والصليبيين .

فهو القائل « ولهذا أهمية خاصة لأن معرة النعمان وهى بلدة المعرى لا تبعد عن حلب الا أميالا قليلة تبلغ نحو الثمانين . ولأن حلب كانت المعهد الأول الذى تعلم فيه المعرى صبيا ، ولأن حلب كانت طول زمان المعرى مركزا للصراع السياسى والدينى العنيف الذى انعكس فى كثير من أدب المعرى (ص ٦٧) .

أراد الدكتور لويس عوض أن يطرح حجة دامغة على صدق نظريته ، فصدر صحيفة الأهرام التى نشر فيها بحثه ببيت شعر يقول :

صليت جمرة الهجير نهارا ثم باتت تغص بالصلبان

الصلبان جمع صليب .. وكتب تحته بخط يده « المعرى فى وصف مدينة حلب » .

والبيت على هذا النحو واضح المعنى ، واضح الدلالة ..

مدينة حلب صليت جمرة الهجير نهارا .. (ودعنا من توهم ان المعرى يصف صباحها الاسلامى بجمرة الهجير ! .. ولكنه لا يستغرب من صاحب نظرية ان المعرى وجيله كانوا يفضلون الاحتلال الصليبى على الاستقلال والقوة يقدمهما الحكم الاسلامى المصرى) .. ثم جاء الليل واحتل الصليبيون مدينة حلب فباتت تغص بالصلبان (جمع صليب) فى رايات الجند وخوذاتهم !

اذن صحت الرؤيا .

ولكن .. بيت الشعر ليس كما رواه ..

فهو :

صليت جمرة الهجير نهارا ثم باتت تغص بالصـــليان

باليـاء .. ذات النقطتين التحتيتين .. وهـو اسم نبات شهى للابل .. والبيت لأبى العلاء المعرى يصف ناقته التى شقيت بالنهار وهى راحلة الى أن جاءها الليل بأطايب الطعام وهو نبات الصليان !

هل نقول ان الدكتور خطف البيت خطفا وبنى عليه نظريته؟! أهكذا يكون الاجتهاد ؟ أم نقول ان الدكتور يستهتر بجمهوره ، يستهتر بتلاميذه ، يستهتر بالجو الثقافى كله ، فيدلس عليه بيتا ويلفق له مناسبة ، ويستخرج منه نظرية ..

ان أى مصدر نشر فيه هذا البيت قد كتب تحته الشرح وفيه شرح كلمة الصليان وقوله .. فى وصف الناقة .

أيكتشف الدكتور هذا الكشف فلا يكلف نفسه حتى قراءة بيت قبله أو بعده ؟!

أليس من حقنا أن نرفض هذا الاجتهاد ؟!

وأن نأسى على مثله مجتهـــدا ، وعلى تلاميـــذ يقـــرأون له فيصدقون ، وعلى حركة ثقافية هو ميزانها وقاضيها !

المعرى قرأ التراث اليونانى ؟! .

يتمـــكن الدكتور فى بؤس حقيقى،ويقول ، أو يدع تلامذته يقولون: هل كان كل جريمتى أننى قلت أن المعرى قد درس التراث اليونانى (ومجمل هذا الكلام انى ارتكبت اثما عظيما وتطاولت على حضارة العرب حين ذهبت الى « ترجيح » ان المعرى كان « مطلعا » على تراث اليونان) .

بمن يغرر هذا الدكتور ؟!

نعم ! ارتكبت اثما عظيما .. ان كان ذلك هو كل ما قصـــدت اليه من كتابك هذا الذى كان مقالات فى أوسع الصحف المصرية انتشارا .. وأى اثم أكبر من أن تزعم ان هـــذه البديهية هى التى أتعبت نفسك فى اثباتها !..

ترجح ؟!..

لا يا ســـــيدى ـ عافاك الله ـ نحن نجزم ونقطـــع ونوقن ان أبا العـــلاء المعرى كان دارســـا متفقها ، لا « مطلعا » على التراث اليونانى ..

فالذى ينكر على المعرى اطلاعه على التراث اليونانى آثم حقا .. لأنه ينتقص من قدر الرجل..والذى يجعلها قضية..دجال ..

حسب أى ملم بالقراءة أن يطلع على فهرست ابن النديم ليعرف

انه ما من مثقف عربى ، قد عاش هذه الحقبة الا وكان بوسعه أن يطلع على روائع اليونان ..

النقطة المهمة ، هى أن المكتبة العربية كانت فى ذلك الوقت ، هى المصدر الوحيد للتراث اليونانى .. وليس اجتهادا أن نقول ان بعض الكتب اليونانية الموجودة الآن فى أوروبا مصدرها الوحيد هو ترجمة عربية بعد أن ضاعت أصولها اليونانية .

أوروبا لم تعرف التراث اليونانى الا من المترجمات العربية ، فلم يكن لدى البيزنطيين ولا الصليبيين،الذين جاءوا بعد وفاة المعرى بنصف قرن تراث يونانى يقدمونه ، ولا فكر متقدم ، ولا حـــوار عقائدى .

كنا بحكم دورة التاريخ ، ولو كره الكارهون ، القمة الثقافية للعالم كله .. وكان فى مكتبتنا جل التراث اليونانى ، وما من مثقف الا وقد درس هذا التراث فى ترجماته العربية [1] .

وراهب دير الفاروس ما كان له من ســـبيل الى معرفة تراث اليونان الا فى نسخ عربية ..

وانه « لتنفيه » لشأن هذا التراث ، وفهم عجيب لمعنى الثقافة ، ان تصور حكمة اليونان وفلسفتهم ، كأنها وشاية يفضى بها راهب فى دير ، لصبي مر به فى رحلة !!

---

(١) راجع فى ذلك كتاب الدكتور الكبير ، والعالم الشريف : الدكتور عبد الرحمن بدوى « دور العرب فى تكوين الفكر الأوربى » . فقد أحصى ما قرأه بعض أعلام الفكر الاسلامى فى تراث اليونان ، وما ترجموه ، وما نقحوه من تراجم .

لا ‥ نحن نقول ان المعرى درس التراث اليونانى دراسة جادة تليق بالروح العلمية الاسلامية فى ذلك الحين‥وفى مراجعها العربية ، أدق وأكمل مراجع ، لا فى ذلك الوقت وحده ، بل ولعدة قرون بعدها ‥

وليس المعرى وحده الذى اطلع ودرس بل كل المثقفين العرب ‥ وها هو أبو الطيب المتنبى يقول قبل أن يولد المعرى :

يموت راعى الضأن فى سربه
و : ميتة « جالينوس » فى طبه
من مبلغ الاعراب انى بعدها
جالست رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه
متملكا متبديا متمصرا ‥

ها هو المتنبى يرص أسماءهم ، كما تفعل أنت ، فتنثر أسماء هوميروس وفرجيل ومكروبيوس وجلجامش ! ‥

بل ان أسماء المتنبى كانت أكثر شيوعا وتداولا بين المثقفين وسماع ورواة شعر المتنبى من شيوع الاسماء التى تقذفها على قرائك اليوم ‥

ليس الخلاف على تراث اليونان اذن ‥ بل على تفسير المناخ الفكرى الذى أنجب العبقرى أبا العلاء المعرى ‥

وليس ذلك حديثه ‥ فمعذرة يا اخوانى ‥ والى لقاء جديد

الزمالك

٣ ب بهجت على

مايو ١٩٦٦